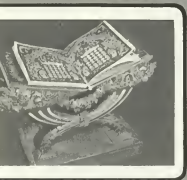


فنا



الفردوس المفتوح

لعل الفن الأندلسي المغربي من أعرق الفنون التي خلفتها العصور الوسطى. منذ القرن الثاني لمجري ولقب عبد الرحمن الداخل مؤسس جامع قرطبة مشدوهاً معجباً أمام مآثر الرومان الرائعة التي لقيها حين مر بالبلاد الأسبانية. فحاول أن يثبت في هذا المسجد ما راعه في الفن الجديد الذي ما لبث أن تطعم بالعناصر الطريفة الواردة من قادة اليونان، أو عن طريق العلماء الفاتحين البيزنطيين. وهذا الفن الذي نشأ عام ٧٨٦ م — كما يقول طبراس — مازال يعيش ضمن الحرف والمهن في كبريات الحواضر المغربية^(١). فهو فن منبثق من حضارة واحدة ولدت في إسبانيا وترعرعت في الحواضر الأفريقية ولذا فهو وليد المدينة الأندلسية بقدر ما هو منبثق من عطيات الإسلام ..

الفن الأندلسي

بقلم الأستاذ: عبد العزيز بن عبد الله

وقد أصدر الأمير الأموي عبد الرحمن الأول أمره بالشروع في بناء جامع قرطبة عام ١٧٠ هـ، غير أن المنية عاجلته بعد سنتين فاستأنف ولده هشام هذا المشروع الضخم الذي لم يتم على شاكلته الحالية إلا بعد قرنين ونصف قرن، ولكن المعالم الأولى التي خطها الأمير عبد الرحمن ظلت سائدة في التوسيعات المتوالية. بحيث يمكن القول: بأن فنًا جديدًا اتبثق في الغرب منذ عام ١٧٠ هـ (أي ٧٨٦ ميلادية) مستمدًا تنميطاته وموادّه المرمية وسواريه من بقايا الرومان، ولكن رسومه مقتبسة من جامع دمشق وجامع بغداد والمسجد الأقصى.

ويُشكل هذا المسجد الآن مربعًا (طوله ١٨٠ مترًا وعرضه ١٣٠ مترًا) ثلثا أروقته للصلاة والثلث الباقي صحن وهو محاط بسور مسنن مدعم الجوانب، فُتحت في أضلاعه أبواب رائعة، أُغلق اليوم معظمها لوقوعها في أجنحة هذا المبدع الكبير الذي أصبح كنيسة، وقد أسس الجامع على حافة الطريق المؤدية إلى قنطرة^(٢) الوادي الكبير قبالة القصر الملكي، حيث لم تتسع مساحته تدريجيًا إلا نحو الجنوب والشرق.

وكان هذا المسجد كنيسة أول الأمر، فحذا الأمير حذو الخليفة عمر بن الخطاب في الانقسام، وجرى في قرطبة ما جرى بالنسبة لكنيسة القديس جان بدمشق، حيث اقتطع المسلمون نصف الكنيسة وتركوا الباقي للمسيحيين، إلا أن رحاب الجامع الجديد ضاقت بعد أن أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الغرب الإسلامي. فقرر عبد الرحمن الأول بعد نصف قرن اقتناء النصف الآخر.

وقد ورد في (منهاج الفكر): أن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ باع وعرضها ٢٠ باعًا وارتفاعها ٦٠ ذراعًا وعدد حناياها ١٨ حنية وعدد أبراجها ١٩ (نفع الطيب — المجلد الأول — القسم الأول طبعة ليد عام ١٨٥٥ م، ص ٣١٤).

ونقل المقرئ عن صاحب المغرب عن ابن بشكوال أن الحاكم المستنصر استنصر العلماء للمشورة في تحريف قبلة جامع قرطبة إلى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء، فقال له الفقيه أبو إبراهيم: إنه قد صُلِّي إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة فأخذ الخليفة برأيه (النفع ج ١ ص ٣٦٩).

وقد صرف الأمير من غنائم (ناربونة) مائة ألف مثقال، ثم زاد نجله هشام الأول سقائف للنساء وحوضاً للوضوء ومنارة، ويظهر أن البناء توقف في عهد الحكم الأول واستوقف عام ٢١٨ هـ في أيام عبد الرحمن الثاني، فأقيمت تسع بلاطات جديدة مدعمة بثمانين سارية في ظرف ١٥ عاماً، ومن سنة ٢٣٤ هـ إلى منتصف القرن الرابع تم نقش وترخيم طرز المسجد وبناء المقصورة ومستودع لأموال الأعباس وتجديد الحوض والسقائف، وأقيم ساباط بين القصر والجامع، أما عبد الرحمن الناصر فقد اهتم بالمنشآت العسكرية والمدنية أكثر مما اعتنى بالمؤسسات الدينية، ومع ذلك فقد صرف على الجامع نحو ربع ما أنفق على قصر الزهراء (المغرب ج ٢ ص ٣٤٤) حيث هدم مثلاً منارة هشام الأول وأقام مكانها صومعة جميلة.

وقد كان للحكم الثاني اهتمام خاص بالجامع حتى أشرف بنفسه على رسم تصميم التوسيع بحضور فقهاء ومهندسين وبنى بلاطات ومحراباً جديداً وأقام قبة في البلاط^(٢) المركزي والبلاط الجانبى قبالة المحراب مع تخطيطها بالمرمر المنحوت والفسيفساء. وهو الذي جلب الفسيفساء عام ٣٥٤ هـ من ملك الروم اقتداء بالوليد في بناء مسجد دمشق حيث أوفد رسلاً إلى إمبراطور بيزنطة (نيسفور فوكاس) فرجع الوفد بالصانع ومعه من الفسيفساء ٣٢٠ قنطاراً هدية « فرتب جملة من المالك لتعلم الصناعة. فأبدعوا وأروا على الصانع الذي صدر راجعاً عند الاستغناء عنه^(٣) ».

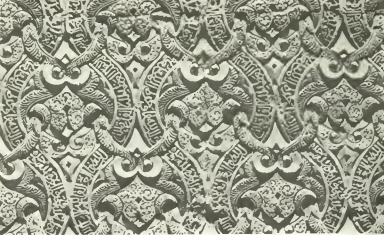
وفي عام ٣٥٦ هـ أجرى الخليفة إلى سقايات الجامع ماء عذباً من عين جبل قرطبة «حرق له الأرض وأجره في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة أودع جوفها أنابيب الرصاص».

وقد هدم منبر الجامع عام ١٥٧٢ م^(٤) ولكن الجامع احتفظ منذ تسعة قرون بروائه وراثته ووميض نقوشه ومناعة هيكله^(٥). وفي عام ٣٢٩ هـ جرى الماء من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة وعلى الحنايا المعقودة إلى بركة عليها أسد بديع الصنعة من الذهب الابريز، وعيناه جوهرتان لها وميض، يحوز هذا الماء إلى عجز الأسد فيمجة في البركة وتسقى من عجاجة جنان القصر (الفتح ج ١ ص ٣٧١).

أما استعمال وسائل (علم الحيل) للنقل فقد ذكر ابن بشكوال (الفتح ج ١ ص ٣٦٥) أن الحاكم المستنصر أجرى الماء من سفح جبل قرطبة إلى سقايات اتخذت بأبواب المسجد يمهاته الثلاث، وهي عبارة عن ثلاث جواني من حياض الرخام استقطعها بمقطع (المنستير) بسفح جبل الجبل ١٠٣

قرطبة واحضرها الرخامون بمنافيرهم حتى استوت في صورتها البديعة، وحملت كل واحدة منها وفوق عجلة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فُلك موثقة بالحديد محفوفة بالحبال. قرن لجرها سبعون دابة من أشد الدواب، وقد أفاض مؤرخو الإسلام في وصف الجامع الأموي، فنقل ابن عذاري عن الرازي (المغرب ج ٢ ص ٣٤٢ — ٣٤٣) أنه لما عمرت قرطبة ونزلها أمراء العرب يبيعونهم ضاق المسجد وجعلوا يعلقون منه سقائف، فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية اشترى من أعاجم قرطبة بقية الكنيسة وأباح لهم بناء كنائسهم المهذبة وقت الفتح فأتم في عام ١٧٠ هـ بناء الجامع الذي كمل ببلاطه واشتملت أسواره في عام واحد، وزاد ابنه صومعة ارتفاعها ٤٠ ذراعاً وبنى سقائف للنساء، ثم أضاف عبد الرحمن بن الحكم عام ٢٣٤ هـ زيادة طولها ٥٠ ذراعاً وعرضها ١٥٠ وعدد سواربها ٨٠. وأمر ولده محمد بإتقان طرز الجامع وتنسيق نقوشه وإقامة المقصورة، ثم زاد التندريت المال في الجامع وجدد السقاية والسقائف، وزاد أخوه الأمير عبد الله ساباطاً معقوداً على حنايا يتصل بالمقصورة، وذكر ابن سعيد نقلاً عن ابن بشكوال أن طول الجامع من القبلة إلى الجوف ٣٣٠ ذراعاً، والصحن المكشوف عنه ٨٠ ذراعاً، وعرضه من الغرب إلى الشرق ٢٥٠ ذراعاً، وعدد أبنائه عند اكتمالها أيام المنصور بن أبي عامر ١٩ وعدد الأبواب ٢١ والمنبر مؤلف من أكارم الخشب ما بين أبنوم وصندل ونبع وبقم (نوع من الخشب يصلح للطلاء الأحمر) وهو مركب من ٣٦٠٠٠ وُصل قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضة وسمرت بمسامير الذهب والفضة وفي بعضها نفيس الأحجار (النفع ج ١ ص ٣٦٢). وقد شاع في جامع قرطبة نحو ٣٦٠ طاقاً على عدد أيام السنة، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود، إلا أنه لم يقف على ذلك في كلام المؤرخين (نفع الطيب طبعة ليد ١٨٥٥ ج ١ ص ٣٢٠).

وأكد الإدريسي في نزهة المشتاق (الجزء المقتبس من النزهة والمطبوع في ليدن سنة ١٨٦٤ م ص ٢٠٨) أنه ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنسيقاً، وتحدث عن سماوات السقف فأكد أنها من عيدان الصنوبر مسطحة فيها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسددة والفص والدوائر والمداهن، كل سماء مكنت بما فيه من صنائع لا يشبه بعضها بعضاً. قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها «فأنواع الحمرة الزنجفرية والبياض الاسفيذاجي والزرقة اللازوردية والزرقون الباروني والحضرة الزنجارية والتكحيل النقي» (النفس هو المداد)، ولكل عمود رأس رخام وقاعدة رخام وعقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسي غريبة فوقها قسي آخر على عمد من الحجر المنجور



زخارف جصية تحت رواق قاعة السفراء بقصر الحمراء

وركبت عليها تنوءات مستديرة بينها ضروب صناعات الفص، ونحت كل سماء منها إزار خشب كبت فيه آيات القرآن، ومحرابها من الفيسفاء المذهب الملون، على وجهه سبع قس قائمة على عمد، والقسي مزججة، وعلى الكل كتابان بين بحر من الفيسفاء المذهب في أرض الزجاج اللازوردي وتحتها كتابان كذلك وعلى وجه المحراب أنواع من التزيين والنقش وفي عضادتي المحراب أعمدة اثنان أخضران وآخران زرزوريان وعلى رأس المحراب خصة رخام واحدة مشبوكة محفورة منمقة، وعلى يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صناعة، خشبه أبنوس ويقس (نوع من الشجر دائم الاخضر) وعود الجمر، وعن يمينها باب يقضي إلى القصر بين حائطي الجامع في سباط متصل له ثمانية أبواب، وللجامع عشرون باباً مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس.

ولاحظ (المقري) في محل آخر أن عدد الأعمدة ١٢٩٣ من الرخام وأن (باب المقصورة) من الذهب وكذلك جرار المحراب وما يليه، أجرى فيه الذهب على الفيسفاء، وثرى المقصورة قبة محضة لوارتفاع الصومعة التي بناها عبد الرحمن بن محمد ٧٣ ذراعاً إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن، وفي رأس هذه القبة تقايح اثنان من ذهب إبريز، واحدة قبة ونحت كل واحدة سوسنة هندست بأبدع الصنعة، ورمانة ذهب صغيرة على رأس التيج (نقح الطيب ج ١ ص ٣٦٠) ^(٧).

نقل عن بعض المؤرخين أن قرطبة كانت تتكون من خمس مدن يتلو بعضها بعضاً. وبين المدينة والمدينة سور عظيم وحصن حاجز، وكل مدينة مستقلة بنفسها، وفيها ما يكفي أهلها من الحمامات والأسواق والصناعات (الفتح ج ١ ص ٣٦٧).

أما مدينة الزهراء فقد بُدِّيَ في بنائها أيام الناصر أول سنة ٣٢٥ هـ وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ست آلاف صخرة سوى التبليط في الأسس، وجلب إليها الرخام من قرطاج وكان فيها من السواري ٤٣١٣ جلب من أفريقيا ١٠١٣ وأهدى إليه ملك الروم ١٤٠ والباقي من رخام الأندلس.

والخوض المنقوش جلبيه ربيع الأسقف من القسطنطينية، وكان عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعاً بالدر النقيس. وبلغ عدد الدور داخل الزهراء أربعاً دارة، بينها كانت عدة الدور داخل قرطبة ١٣٠٠٠ دار و ٣٠٠٠^(٨) مسجد و ٢٨ ربضاً منها مدينتان «الزهراء والزاهرة». وأما البيعة التي كانت في المجلس البديع فإنها من تحف قيصر اليوناني صاحب القسطنطينية أهداها للناصر (المغرب ج ٢ ص ٣٤٥).

وقد جلب الناصر حسب رواية المقرئ رخام الزهراء الأبيض من المرية والمزعر من رية والوردي والأخضر من أفريقية والخوض المنقوش من الشام، وقيل من القسطنطينية، وفيه نقوش وتمائيل وبنى فيها قصر الخلافة وصممه من الذهب والرخام الغليظ، وفي وسطه البيعة المهداة من (ليون) ملك القسطنطينية، وفرمد هذا القصر من الذهب والفضة، وفي وسط هذا المجلس صهريج مملوء بالزئبق، وفي كل جانب منه أبواب انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي. فإذا أراد الأمير أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أمر بتحريك الزئبق فبظهر فيه كلمعان اليرق من النور فيخيل للناظر أن المجلس قد طار مادام الزئبق يتحرك، وقد قارن المقرئ الزهراء بالقصر الذي شاده ملك طليطلة المأمون بن ذي النون بها حيث صنع في وسطه بحيرة وفي وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكم المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محبباً بها ويتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج في غلالة من ماء سكب خلف الزجاج لا يفتر من الحرى، والمأمون قاعد فيها لا يحس الماء وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر عجيب (فتح الطيب ج ١ ص ٣٢٧).

وقد اشتملت الزهراء على ٤٠٠٠ سارية و١٥٠٠٠ باب وكلها ملبسة بالحديد والنحاس الموه وقد وقع الشروع في بناء الزهراء عام ٣٢٥ هـ واستعملت كل يوم ستة آلاف من الصخر المنحوت المعدل عدا الصخر المصروف في التليط (التفح ج ١ ص ٣٧٣) وكان عدد السواري المجلوبة من أفرقية ١٠١٣ سارية.

وذكر صاحب المطمح أن المنذر بن سعيد أنكر على الناصر إسرافه في البناء لأنه اتخذ لسطح القبية التي كانت مائلة على الصرح المرد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد ذهب وقضة أنفق عليها مالاً جسيماً، وقرمده سقفها صفراً فاقعة إلى بيضاء ناصعة تسلب الأبصار بأشعة نورها (ص ٣٧٧).

وقد لاحظ طبراس^(١) أن أساليب النقش في مدينة الزهراء مقتبسة من اليونان والبيزنطيين في حين أن محراب قرطبة^(٢) شيه بباب خزانة مسجد سيدي عقبة، ومعلوم أنه في الوقت الذي وسع فيه الحكم الجامع الأموي كانت قد مرت أزيد من مائة وعشرين سنة على اقامة مسجد القيروان الذي كان يعتبر إذ ذاك أوسع وأجمل مسجد في الغرب الإسلامي، ويلاحظ كذلك التأثير العراقي العباسي في مؤسسات قرطبة كالكفس المفلوكة أو المقصصة على غرار ورق الأشجار، وكذلك في نقش السقوف الهندسي والقباب المنمقة في شكل عروق وأضلاع.

أما الرسوم الزهرية فالظاهر أنها من ابتكار الأندلسيين^(٣)، وتتجلى التقاليد الأسبانية الصرف في رموس الأعمدة المرمرية التي توجد بقاياها خارج قرطبة في الكنية بمراكش وفي مسجد أنشيلية وفي المتاحف. وقد نحت الرخامون القرطبيون عدداً من أجمل هذه العمدة في العصور الوسطى.

وتظهر المجالس الثانوية للفن الأموي في القلاع والأسوار (مدينة الزهراء وطليطلة) ومعلوم أن خلفاء بني أمية كانوا من كبار بناء الحصون، ولعل مبانيهم العسكرية تفوق في ضخامتها ما أسوه من مساجد وقصور.

وقد استمر الطابع الأموي العام في أيام حجابة المنصور حيث زاد ابن أبي عامر بشرقي الجامع بلاطات تمتد طولها من أول المسجد إلى آخره، وقصد من هذه الزيادة المبالغة في الانفاق والوثاقة دون الزخرفة (المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٤٢٩) وبلغ عدد السواري ١٤١٧، وعدد المجلبة ١٠٧.

الثريات ٢٨٠ وعدد خدام الجامع ١٥٩ شخصاً وعدد القومة ٣٠٠ (الفتح ج ١ ص ٣٦٢ نقلاً عن ابن شكوال).

وفي عام ٣٦٨ أمر المنصور ببناء الزهرة بطرف البلد على نهر قرطبة، فتمت في عامين فترها بخاصته واتخذ فيها الدواوين وأقام خلالها المنازل وجلبات القصور والأسواق فانتقلت أرباضها بأرباض قرطبة (الفتح ج ص ٣٨٠).

وتهم النقوش العامرية بالطابع النباتي غير أن الرموز الحيوانية اتخذت مكانة جلى في فن النحوت المرمرية، وتوجد جفتان من المرمر، إحداهما بمتحف مدريد والأخرى بمدرسة ابن يوسف بمراكش، تحمل اسم عبد الملك نجل المنصور، ومن جملة صور الحيوانات المنقوشة في هذا المرمر النور والعقبان والظباء والأسود والفهود والطيور، وهذا يدل على أن الاستمداد من الطبيعة لم يكن خاصاً بالنقوش الخزفية أو العاجية، وقد خلف لنا الأندلس الأموي مجموعة من التحف العاجية تعتبر من أجمل ما يوجد في العالم^(١٢) وما زالت (تلفزت) بشمال المغرب تصنع إلى الآن نماذج رائعة من هذه العلب والصناديق والأغشية العاجية، ولعل الفن الأموي يستمد هذه البدائع من الفتيين العباسي والفاطمي، ويمكن القول بأنه إذا كان الأثر البيزنطي جلياً في مدينة الزهراء وإذا كان التأثير العباسي قد بدأ يظهر في الصنائع أيام الحكم الثاني فإنه استقى نقوشه الخزفية وصوره العاجية وقسماً من نقوشه الهندسية من العراق ولكنه أضفى عليها طابعه الخاص.

وهكذا ظل الفن الأندلسي من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري موصولاً بالأسر الأموية المالكة وبعاصمة قرطبة، ثم انتشر في باقي ربوع الأندلس وحدود قشتالة، فاستعملت الأساليب المعمارية والنقوش القرطبية في مساجد كميريات المدن وقصورها وقلاعها، وبعد سقوط الخلافة الأموية والحجابه العامرية تمزقت وحدة الأندلس ونشأت مصانع في مدن لم يكن لها سابق نشاط. وفي عهد ملوك الطوائف غرست البلاطات الإقليمية ووجد جذور الفن الأندلسي في المدن الصغرى حيث عاش طوالت قرون ثم مالبت الغزو المرابطي الأندلسي أن فتح باب أفريقيا الشمالية في وجه الفن الأندلسي الذي سادت معالمه في المدن المغربية، غير أنه لم يبق شيء الآن من مؤسسات ملوك الطوائف باستثناء القصور الجعفرية التي أقامها بنو هود في سرقسطة^(١٣) والتي تدل على مدى الجهود الذي بذله النقاشون في هذا العصر (ترايد النقوش الزهرية في شكل دقيق وظهور الفسيفساء المنقطعة واتساع الأشكال الهندسية).

وقد عرف المرابطون كيف يقتبسون من الفن الأندلسي، وينقلون إلى المغرب بدائع هذا الفن، ويعتبر محراب تلمسان وروائع القرويين أجمل ما أهداه المرابطون إلى الأفارقة، وإذا كان المرابطون قد شجعوا انتشار الفنون الأندلسية دون مساس بروحها، فإن الموحديين تمكنوا من إضفاء طابع خاص على مجموعها، ولعل ذلك راجع إلى أن ملك المرابطين لم يدم طويلاً وأن دولتهم استؤصلت في عنفوانها، ومع ذلك فقد مهدوا الطريق للموحدين وفتحوا مدن أفريقيا على مصاريعها في وجه الفن الأندلسي. ذلك لأن ظهور دولة الموحديين غيرت الظروف التي عاش فيها الفن الأندلسي، فانتعش نطاق هذا الفن واتسع مجاله مع تبلور وسائله واتساق مظاهر كماله. وإذا كان عبد المؤمن قد اتجه وبخاصة إلى إقامة مؤسسات بالمغرب (قازة ومراكش) فإن الأندلس احتلت المكانة الأولى في عهد أبي يعقوب الذي جدد أسوار أشبيلية، وأقام قصبة انخسفت إليها أنوار قصور بني عياد، وبني أكبر مسجد في الأندلس^(١٤) ضاهى به جامع قرطبة وكتيبة مراكش التي بناها والده كما نافس قصور القصبة بمراكش.

ثم جاء المنصور فأتم جامع أشبيلية ومنازله العجيبة ومعاريات القصبة بمراكش وبني رباط الفتح (قرب قصبة الوديا التي هي من مخلفات جده) وشرع في بناء جامع حسان، ثم واصل ولده نشاط الأسرة المماري، فأسس أسواراً جديدة بفاس ووسع جامع الأندلس، ولكن هزيمة الموحديين بالأندلس فتحت أبواب أسبانيا في وجه الصليب، على أن الهندسة الممارية العسكرية الموحدية لم تتطور في العدوتين إلا في ميدان النقش حيث استعاض عن الحجر المنحور وعن الرخام بمزيج من الملاط (الطين الذي تطلّى به الجدران)^(١٥) والرمل والماء وهو الأسلوب الاقتصادي السريع في البناء، مما أثر تأثيراً سيئاً في مناعة الحصون وفي قيمتها الاستراتيجية، غير أن استمرار الخطر المسيحي في الأندلس أمد الموحديين أنفسهم إلى نوع من العناية بالهندسة العسكرية، وواصل بنو نصر جهودهم في تجديد الأساليب العتيقة بالاستعداد من الأجهزة المسيحية.

ويمكن القول بأن الطابع العام في المماريات الموحدية هو الفخامة والأصالة مع مهارة المهندسين في فن التشكيلات والتصويرات، ولذلك اتسم الفن الأندلسي المغربي بأعظم وأروع مما اتسمت به الفنون الأخرى.

وفي خصوص الفن الشرقي نلاحظ تقارب الأساليب المغربية الأندلسية مع المناهج الفاطمية سواء في المظاهر الهندسية أم النقوش (بالرغم من استعمال الآجر في المغرب والحجر والعتود والقباب المحدودة في مصر)، وقد تباعدت طرائق التزيين المصرية السورية عن الاتجاهات العراقية لتقرب من المنازع المغربية في الكتيبة ومسجد الحكم الفاطمي بالقاهرة مثلاً توجد حجرية وأقواس مستندة بأعمدة من الآجر ونقوش على الجبس وتوريقات زهرية.

وقد استطاع الفن الأندلسي في عهد الموحيدين الاستمداد من مصر عن طريق (بني زيري) ولكن غزو الأعراب الهلاليين قلص من هذا التبادل الفني بين الشرق والغرب الإسلامي أيام الأيوبيين والمماليك بحيث ظل الفن الأندلسي منعزلاً يتطور بسرعة خارقة في إطار مُغفل تبلورت أشكاله ومعاله، فلم يضاف إليه المنيون ولا الفرائيون اكتشافات جديدة وإنما هي تلوينات طريفة في إطار عتيق زادت جموداً حركة الغزو المسيحي للأندلس.

وقد تأثر الأسبان المسيحيون الذين عاشوا بين ظهرائي المسلمين بالأندلس بالفن العربي الذي ظهرت بعض معالنه في بناء الكنائس (أباه أشبه بمحارب — قسى — قباب موزقة) كما احتفظ المدجنون^(١١) بصنائعهم وأساليبهم الفنية ولكن الدولة لم تستخدمهم إلا في المؤسسات البسيطة، بينما استعمل الأسبان الواردون من الشمال في بناء القصور والمعابد الضخمة بالإضافة إلى عملة من الشمال أو من فرنسا ثم من الفلاندر وألمانيا، وبذلك يرى البعض أن الفن المسيحي في أسبانيا فن أجنبي مستورد من الخارج، ويلاحظ وجود عنصرين في فن المدجنين الفن الأندلسي القديم والفن المجلوب. ففي طياته يسم الفن المقتبس بالطابع الأموي بينما يصطبغ فن المدجنين في أراغون — وهو أبرز أنواع هذا الفن — بالطابع الموحيدي لا سباً في نقوش المنارات (الآجر والفسيفساء) وحتى العناصر المستوردة تتقارب من الفن الموحيدي في التحت والتزيين.

وبعد سقوط طليطلة وقرطبة وبلنسية وأشبيلية أصبحت غرناطة حاضرة لأعظم مملكة إسلامية في أسبانيا والظفت حول بلاط محمد بن الأحمر أبرز عناصر^(١٢) المعرفة والذروة والفن والصناعة (غراسات بلنسية ومصانع مرسية للأواني المذهبة والأسلحة والمصنوعات) ولا توجد الآن في غرناطة أية مؤسسة مهمة أقدم من قصر الحمراء، باستثناء حماماتها التي يرجع عهدها إلى العصر العربي الأول، فبعد ما احتل أمير قشتالة أشبيلية شرع ابن الأحمر في بناء (قلعة الحمراء) وتحدث الأديسي عن الحرف الصناعية فذكر (في الجزء المقتبس من التزئة طبعة ليدن ٢٠٨)

أن مدينة المرية مثلاً كان بها ٨٠٠ طراز يقومون بعمل الخلل والدياج والستور المكلفة والخمر وصنوف الحرير وصنوف آلات النحاس والحديد، وليس في بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقداً ولا أوسع أحوالاً فيها ٩٧٠ فندقاً وفي شاطبة (ص ١٩٢) تصنع ثياب بيض من أبداع الثياب عتاقة ورقة حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد في الرقة والياض. ثم واصل محمد الثاني بناء الحصون والقصور ثم أسس ولده عبد الله جامعاً فخماً واتق الهندام مزداناً بالفسيفساء المنقطة، ومستنداً بأعمدة رائعة برءوسها وقواعدها المفضضة ثم اكتملت بهجة الحمراء أيام الغني بالله لا سباً في ساحة الأسود وردة السفراء (١٨)

وفي عهد أخيه أبي الحجاج انتظمت آخر النقوش والنحوت ونافس الأثرياء بدائع الحمراء بقصورهم الفاخرة ومبانيهم المتشرة في سهول غرناطة وما زالت (قيصرية) المدينة إلى الآن شبيهة بقيصاريات فاس.

وتعتبر ساحة الأسود وردحات الأضلاع وبني سراج من أزوع ما حفظه الحدائق في الحمراء وتقوم وسط الساحة فسقية تتفتح في دائرتها اثنا عشر أسداً أهم وأكمل نموذج للنقش العربي في الأندلس.



الهوامش

- (١) الفن الأسباني الموريسكي — هنري طيراس — باريس — المجلد الخامس والعشرون من نشرات معهد الدروس العليا — المقدمة.
- (٢) المغرب ج ٢ ص ٣٤١.
- (٣) استعمل الأمير بعض مواد الخراب القديم من أربع أسطوانات التوت بعد قرنين أصحباب الشريف الأديسي (المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مقتبسين من زهرة اللثاق طبعة ليد عام ١٨٩٢ م ص ٢١٠).
- (٤) كتاب المؤرخ الأسباني موراليس حول تاريخ أسبانيا.
- (٥) البيان المغرب في أعيان المغرب لابن عذارى — بيروت عام ١٩٥٠ ج ٢ ص ٣٥٤.
- (٦) الفلسفة الممارية عند العرب والمغاربة في أسبانية وصقلية وبلاد البربر بقلم جيروم دوفراغني باريس عام ١٨٤١ ص ٤٩.
- (٧) كان للصومعة التي جددتها عبد الرحمن الناصر عام ٣٢٠ هـ مقلتان فصل بينهما البناء فلا يلتقي الزقون فيها إلا بأعلاها (الفتح ج ١ ص ٣٩٩ عن ابن بشكوال).
- (٨) ذكر القرى أن دور فرطة وارباضها غلفت بأهام ابن أبي عامر ١٣٠٧٧ هـ دارا للربعة و ٦٠٣٠٠ دار للاكاير و ٨٠٤٥٥ حاتونكا (فتح الطب ج ١ ص ٣٥٦).
- (٩) كتاب الفن الأسباني المغربي — باريس ١٩٣٢ ص ٩٦.
- (١٠) ص ١١٠.
- (١١) ص ١٤١.
- (١٢) طيراس — الفن الأسباني المغربي ص ١٧٣.
- (١٣) طيراس ص ١٩٧ (في عهد أبي جعفر المقتدر ص ٢٠٢).
- (١٤) طيراس ص ٢٨٠.
- (١٥) قوى استعمال الآجر في المساجد والقصور باستثناء جامع حسان حيث تكثر السواري الحجرية وكذلك في تلمسان أيام بني مرين.
- (١٦) وقيل المدحلون وهم المسلمون فن لكم الأفرنج عند المغاربة (عن ابن فضل الله العمري) المكتبة الصقلية ص ١٥٠.
- (١٧) ردة السفراء في أشيائية لاحتفاذي الحمراء في روحها ولكنها مع ذلك من أجمل ما خلقه الفن الموريسكي.
- (١٨) شيدها أبو الحجاج عام ٧٤٩ هـ حسب التاريخ للسجل في باب الشريعة.
- (١٩) الفلسفة الممارية عند العرب والمغاربة — جيروم دوفراغني طبعة ١٨٤١ ص ١٥٣ راجع في قسمه الأخير نماذج رائعة من الكتابات الممارية مع صور خلاصة تمثل بدائع النش في تصورات غرناطة ألوانها الحقيقية.

بلاد الأنديز

تتضمن الدولة الإسلامية.



الحدود الشاذلة لإمارة الخلافة الأموية
الحدود الشاذلة لإمارة الخلافة الموحدية
الحدود الشاذلة لإمارة الخلافة بني الأموي

